

مدخل إلى آيات مقارنة الأديان

د. موسوي محمد

جامعة تلمسان

1 - حقيقة مقارنة الأديان

أ- حقيقة المقارنة القرآنية

ب- مقارنة الأديان السماوية

ت- مقارنة الأديان الوضعية

2- مستوى آيات مقارنة الأديان

أ- مستوى التوحيد

ب- مستوى التشريع

ت- مستوى المعاملات

المقارنة التي نعنيها في مداخلتنا هي محاولة الوقوف على بعض الآيات القرآنية التي تضع الجذور الأولى لعلم مقارنة الأديان، فالقرآن الكريم كثيرا ما يشير إلى أسلوب التعامل مع أديان غير المسلمين من أهل الكتاب اليهود والنصارى، وغيرهم من ذوي الديانات الوضعية وقد حرص في أبنا موضع من احترام الغير، يقول تعالى: «لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ» [البقرة: 256]. فالإسلام لا يكره أحدا على الدخول فيه، فقد ظهر بالآيات البينات، فالإيمان به رشد، الكفر به غي والآية نزلت فيمن كان له من الأنصار أولاد أراد أن يكرههم على الإسلام¹.

¹ — تفسير الإمامين الجليلين /36 و أنظر أسباب النزول.

فالقرآن الكريم في مواضع كثيرة يقر أن ما أمر به محمد (ص) من تبليغ لأمرته من شرع، هو امتداد لشرائع سابقة، وفي هذا اعتراف بالأديان السماوية السابقة يقول تعالى: «شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ» [الشورى: 13].

وقوله تعالى: «إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِأَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا» [النساء: 163 - 165].

وإذا كانت سمة التسامح تطبع الإسلام في تعامله مع الأديان السابقة واللاحقة فإنه لا ينبغي أن تفهم امتداديته هاته، هي محل تنافس بينه وبين هاته الأخيرة.

فامتدادية الإسلام للأديان السابقة خاصة من جانب العقيدة: هي إقرار من هذا الأخير لتشبيته للأديان السماوية السابقة، واعتراف بها فالمشروع هو إقامة الدين، ولم يرد به الشرائع فإنها مختلفة قال تعالى: «لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا» [المائدة: 48]، وبهذا المفهوم فالدين واحد وإن تعددت الشرائع، بل في الآية المباركة دعوة إلى الاعتراف بديانات الأنبياء السابقين وعدم التفرقة والاختلاف ولا تتفرقوا فيه «ولا تختلفوا في الدين» قال علي عليه السلام: «لا تتفرقوا فالجماعة رحمة والفرقة عذاب»¹.

فقوله تعالى: «إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ» جواب لأهل الكتاب عن سؤالهم رسول الله ﷺ أن يزل عليهم كتابا من السماء واحتجاج عليهم بأن شأنه في الوحي إليه كشأن

¹ — أنظر تفسير النسفي 102/3.

سائر الأنبياء الذين سلفوا¹. سأل أبو ذر رسول الله ﷺ عن الأنبياء قال: «مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا. قال كم الرسل منهم قال: ثلاثمائة وثلاثة عشر أول الرسل آدم وآخرهم نبيكم محمد ﷺ، وأربعة من العرب هود وصالح وشعيب ومحمد عليهم السلام»².

ونكران لما آلت إليه من تكبير لصفاء المنبع في الزمان والمكان، ومحاولة لتصحيح المعتقد «فالنفس بفطرتها إذا تركت كانت مقرة لله بالإلهية محبة لله تعبه لا تشرك به شيئا، ولكن يفسدها وينحرف بها عن ذلك ما يزين لها شياطين الإنس والجن بما يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا، فالتوحيد مركز في الفطر، والشرك طارئ ودخيل عليها»³. يقول تعالى: «فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ» [الروم: 30].

فالأصل في بني آدم التوحيد قال ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه»⁴.

وأول ما حدث الشرك والانحراف عن العقيدة في قوم نوح فكان عليه السلام أول رسول «إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالتَّيِّبِينَ مِنْ بَعْدِهِ» [النساء: 163].

قال ابن عباس: كان بين آدم ونوح عليهما السلام عشرة قرون كلهم على الإسلام — قال ابن القيم⁵ وهذا القول هو الصواب قطعاً فإن قراءة أبي بن كعب

¹ — المصدر نفسه 263/1.

² — المصدر نفسه 263-264/1.

³ — د. صالح بن صالح الفوراق كتاب التوحيد. مطبعة سفير الرياض (دت) ص 6.

⁴ — في الصحيحين من حديث أبي هريرة.

⁵ — إغاثة اللهفان 102/2.

يعني في آية البقرة "... فاختلفوا فبعث الله النبيين «ويشهد لهذه القراءة قوله تعالى: «وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا» [يونس: 19].

يريد ابن القيم - رحمه الله - أن بعثة الأنبياء سببها الاختلاف عما كانوا عليه من الدين الصحيح - كما كانت العرب بعد ذلك على دين إبراهيم عليه السلام حتى جاء عمر بن لحي الخزاعي فغير دين إبراهيم وجلب الأصنام إلى أرض العرب وإلى أرض الحجاز بصفة خاصة فعبدت من دون الله وانتشر الشرك في هذه البلاد المقدسة وما جاورها - إلى أن بعث الله نبيه محمدا خاتم النبيين ﷺ فدعا الناس إلى التوحيد، واتباع ملة إبراهيم وجاهد في الله حق جهاده حتى عادت عقيدة التوحيد وملة إبراهيم وكسر الأصنام وأكمل الله به الدين، وأتم به النعمة على العالمين، وسارت على نهجه القرون المفضلة من صدر هذه الأمة، إلى أن فشا الجهل في القرون المتأخرة ودخلها الدخيل من الديانات الأخرى، فعاد الشرك إلى كثير من هذه الأمة، بسبب دعاة الضلال». ويجمع المفكرون المسلمون على أن كل رسول يجيء برسالة تناسب زمانه وتحقق أغراضها في ذلك الزمان، وكلما تغيرت الحاجة جاء طور من الديانة جديد يتفق مع الأديان السابقة في أصل الوحدانية الكبير، ويختلف في فروعه تبعاً لحاجات الناس، وهذا موقف الإسلام بالنسبة للأديان السابقة، فالإسلام هو وحده دين الحاضر والمستقبل¹.

ويتحقق الجانب النظري في آيات مقارنة الأديان في القرآن الكريم في حديثه على العلاقة التي تربط الدين الإسلامي بالديانات السماوية الأخرى، وكيف أنه يعد "الحلقة الأخيرة في سلسلة الأديان، وأنه بالتالي، ورث أهم ما في الأديان السابقة، وأضاف إلى ذلك ما تحتاجه البشرية في مسيرتها إلى يوم الدين"². ويؤكد

¹ — اليهودية. د/أحمد شليبي، دار العلوم ط 10 القاهرة 1992 ص/28.

² — المرجع السابق ص/28.

هذا قوله تعالى: «وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ» [آل عمران: 85]، وقوله تعالى: «إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ» [آل عمران: 19].

العلاقة بين القرآن والكتب المقدسة عناصر يجب تصورها من سائر وجوها. - فالقرآن الكريم يؤكد صلته بالكتاب المقدس وهو «يطلب دائما مكانه في الدورة التوحيدية، وهو بهذا وبذلك يثبت - باعتداد - التشابه بينه وبين التوراة والإنجيل، وهو يؤكد هذه القرابة صراحة، ويلفت إليها النبي ﷺ نفسه كلما جدت مناسبة»¹.

يقول تعالى: «وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ» [يونس: 37]. فالقرآن بقرابته للكتب السماوية السابقة يعد مكملًا ومصححًا لمعلومات هذه الأخيرة، مع بقاءه محافظًا على فكرة التوحيد «الله واحد، مخالف للحوادث، رب العالمين»، وبذلك فقد أخرج بهذه الطريقة الحاسمة ذات الله جل شأنه من نطاق الأنانية اليهودية، والتعدد المسيحي»².

وإذا كانت دعوة محمد ﷺ الإسلام تتفق مع الديانات السابقة في هذه الوحدة ومصدرها الإلهي، فإنها لا شك تختلف معها في كونها الدعوة النهائية الخاتمة لجميع الأديان، وأنها دعوة عامة عربا وعجمًا بيضا وسودا إنسا وجنا، وبالتالي فهو دعوة صالحة لكل زمان ومكان على عكس الديانات السابقة التي كانت محدودة الزمان والمكان؛ وأن محمدا ﷺ هو خاتم النبيين.

¹ — مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية. ص/189.

² — المرجع السابق ص/191.

وبهذا الطرح فالدين الإسلامي ليس جديدا بل هو استمرار وتجديد للوحي الذي أنزل على نوح ومن بعده من المرسلين¹.

«وتبقى العقيدة هي ترجمان الصلة بين الديانات السماوية وعليه، فالتطور في الديانات أمر لا سبيل للشك فيه، فعلماء المقابلة بين الأديان يجمعون على أن الإيمان بالأرواح شائع في جميع الأمم البدائية، وأن الأمم التي جاوزت هذا الطور إلى أطوار الحضارة، وإقامة الدول لا تخلو من مظاهر العبادة للطبيعة أو عبادة الكواكب على الخصوص، وفي طليعتها الشمس والقمر، وسائر السيارات المعروفة، وأن عبادة الكواكب على الأسلاف تتخلل هذه الأطوار المتتابعة على أنماط تناسب كل طور منها حسب نصيبه من العلم والمدنية»².

هذا وإن كنت لا ننكر التعامل مع كتب العهدين، القديم والجديد، والأخذ منهما ما يساعدنا على إبطال نصوصهما ما يمكن إبطاله من الدعاوي لأن هذه الكتب ليس لها سند متصل ولم تخل من تحريف المحرفين³. وعليه فنحن نصارح بأمور محددة: أن طاعة أبناء الأديان الأخرى في أطراح الإسلام كلا أو بعضا هو ارتداد لا ريب فيه، والإسلام قبل أن يكون حفنة من الحدود والعقوبات المقررة دين ينشئ الأمم على الإيمان والعدالة والحقوق المصونة، والأمانات المرعية⁴.

¹ — محمد فتح الله الزيايدي. إنتشار الإسلام و موقف المستشرقين منه دار قتيبة ليبيا ط 1 1990 ص/19-20.

² — المنهل العدد 486 السنة 55 المجلد 50 الرياض ص/40.

³ — عبد الوهاب نجار. قصص الأنبياء. مكتبة رحاب الجزائر (دت) المقدمة.

⁴ — مجلة العلوم الإسلامية عدد 2، ماي 1987، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية قسنطينة ص/22-23.

- جذور علم مقارنة الأديان في القرآن الكريم:

يمكن التوصل إلى هذه الجذور من خلال الآيات التي تصرح بالديانات الأخرى سماوية كانت أم أرضية وضعية سواء كانت صريحة أم ضمنية.

وأكثر ما تتبين المقارنة بين الأديان في آيات المحاوراة والمجادلة، والفرق بين المحاوراة والمجادلة¹ يكمن في مدلول كل منهما، فالمحاوراة هي مراجعة الكلام، يقال حاورته أي راجعته الكلام، وتحاور القوم أو الجماعة أي راجعوا الكلام بينهم، أو هي المراءاة في الكلام.

والمجادلة هي اللدد في الخصومة، وهي تدور في معظمها حول التخاصم بالكلام، فالخصومة لازمة للجدال بينما لا تلزم الخصومة في المحاوراة، ونجد هذه التفرقة واضحة على أي القرآن الكريم فمثلا في قوله تعالى: «وَجَادِلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ» [غافر: 5]، وقوله تعالى: «وَلَا تُجَادِلْ عَنْ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ» [النساء: 107]، وقوله تعالى: «فَلَا رَفْتَ وَلَا فَسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ» [البقرة: 197]، وقد وردت مادة الجدال في نحو تسعة وعشرين موضعا في القرآن الكريم، ويغلب على هذه الآيات في المواضع كلها دلالتها على عدم الرضا عن الجدال وعدم جدواه؛ وقد وردت مادة المحاوراة في ثلاثة مواضع، في موضعين يبدو في ظاهرها التخاصم الشديد في قصة الأخوين صاحبي الجنتين، حيث كان أحدهما مؤمنا سخيّا، والآخر كافرا شحيحا «فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا» [الكهف: 34]، وقوله تعالى: «قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا» [الكهف: 37].

¹ — أنظر الراغب الأصفهاني: غريب مفردات القرآن الكريم: وأنظر: أسلوب المحاوراة في القرآن. د/عبد الحليم حقي ص/11-13.

فالمحاورة في الموضوعين ليست خصومة، وإنما هي اختلاف بين أخوين في الدين والمنهج هذا ما جعل التعبير القرآني يكون بلفظ التحوار أي: المرادة في الكلام، والموضع الثالث يتضمن التفرقة بين المجادلة والمحاورة، وذلك في قصة المرأة التي جاءت تخاصم زوجها وتشتكيه يقول تعالى: «قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ» [المجادلة:1].

وطبيعة المحاورة في القرآن الكريم يوصلنا إلى الوقوف على علاقة الأديان بعضها ببعض، وسنكتفي بأمثلة توضيحية من خلال المستويات الثلاثة للأديان:

مستوى الإيمان:

سبق وأن أشرنا كيف أن دعوة الأنبياء واحدة وهي دعوة دعت كلها إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وقد صور القرآن الكريم «الألوهية التصوير الذي يدمغ الجاهلين والجاهلين جميعاً»¹ يقول تعالى: «قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا، تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا» [الإسراء: 42-44].

ومن الآيات القرآنية التي تقارب بين الأديان في قضية الألوهية من خلال أسلوب حوار شقي قوله تعالى: «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ، أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ، فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ أَتْبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِآدِي الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ، قَالَ يَأْقُومُ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَأَتَانِي رَحْمَةٌ مِنْ عِنْدِهِ فَعَمِيتُ عَلَيْكُمْ أَنْزَلْتُكُمْوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ، وَيَأْقُومُ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ

¹ — محمد الغزالي. ركائز الإيمان ص/227.

آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَأَيْتُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ، وَيَقُولُ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ، وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكُوكَ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ، قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ، قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيَكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ، وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ» [هود: 25-34]، فوحدانية الله إذن هي كل

القضية التي يدور الصراع حولها بين نوح عليه السلام وقومه، وهم الخصم في المحاوره: « فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا تَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا تَرَاكَ أَتْبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَنْ يُبَادُوا بِرَأْيِ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ » [هود: 27]، فالكفر هو عنصر الخصومة في المحاوره، فنوح عليه السلام كان يواجه خصومة عنيدة، وخصوما غلاظا أشداء وقد صاغ خصوم نوح النتيجة بأسلوب الشك فقالوا: بل نظنكم كاذبين، وقد كان من مصلحتهم أسلوب اليقين بأن يقولوا أنتم كاذبون، والجواب أن خصوم نوح لم يخسروا بهذا الشك أو الظن شيئا من حيث النتيجة، فإنهم يتحاورون حول الدين بوصفه عقيدة، والعقيدة إذا نزلت عن اليقين بأي درجة من درجات الشك لا تكون عقيدة ولا إيمانا¹، فالدليل متى تطرق إليه الاحتمال سقط به الاستدلال فقول الخصوم نظنكم كاذبين يؤدي حتما إلى النتيجة أنتم كاذبون، وهم بهذا الأسلوب كسبوا الرهان فظهروا بمظهر الاعتدال.

وفي خضم هذا الصراع الإيماني يحس نوح عليه السلام باليأس تجاه استجابتهم له وميلهم إليه فيحييهم: «قال إنما يأتِيكم به الله إن شاء الله وما أنتم بمُعْجِزِينَ».

¹ — د/ عبد الحليم حفي ص/76.

ورغم ذلك فهو يبقى يأمل في صلتهم بالله لعلهم يهتدون. «ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم هو ربكم وإليه ترجعون». مما سبق نستشف أن دعوة نوح هي دعوة الأنبياء الذين تلو، ومعاناة نوح هي معاناة الأنبياء بعده، وفي كل تبقى الاستجابة لهذه الدعوة متأرجحة بين القبول والرفض، والهداية والتضليل. يقول تعالى: «إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ» [القصص: 56].

وبعد، لقد صور القرآن الكريم عقيدة أديان الكتب السماوية بأنها سليمة صادقة صافية، ولا تختلف عن عقيدة المسلمين فالعقيدة الأصلية كانت الإيمان بالله الواحد الأحد، الفرد الصمد إله الناس جميعا، خالقهم وراعيهم، العالم بكل شيء القادر على كل شيء، والإيمان بالملائكة والرسل، والكتب واليوم الآخر وما يتصل بذلك من الحساب والثواب والعقاب.

ومن أمثلة ما جاء في القرآن الكريم قوله تعالى: «وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِي وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ، وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ، الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ، وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ، وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ، وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ، وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُوسُفَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ» [الأنعام: 80-86].

وقد حرص القرآن أيضا على تصوير التشويه الذي اعترى عقيدة أهل الكتاب يقول تعالى: «مَنْ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا

وَأَسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِالْسُنَّةِهُمْ وَطَعْنَا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا» [النساء: 46].

وقوله تعالى: «لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ، كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ» [المائدة: 78-79]. وقوله تعالى: «وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ» [الأعراف: 148].

2- مستوى التشريع:

لا شك أن قضايا التشريع هي خاصة بكل قوم، ويؤخذ في الحسبان الزمان والمكان والظروف المحيط بهما، وعقليات القوم ونفسياتهم، فلا يعقل أن ما كلف به بنو إسرائيل يساير أمة محمد ﷺ، فإذا كان يصح للذكر من البطن الواحد أن يتزوج الأنثى من نفس ما لم يكونا توأمين، فإن هذا الأمر قد أبطل مع مجيء الإسلام، وإذا كان اصطيد السمك ممنوعا يوم السبت بالنسبة لبني إسرائيل لعنادهم وتشديدهم فإن اصطيداده مباح في كل وقت.

ونحسب أن هذا الشأن لون من ألوان العبادة يختبر من خلالها رب العالمين نية عبده ومدى صدقه وإخلاصه، كما في قوله تعالى: «وَأَسْأَلُهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ» [الأعراف: 163]. فهذا التشريع الذي هو من قبيل الابتلاء يقارب تشريعات الأديان الأخرى من حيث المنهج الرباني العام المسطر، فبنو إسرائيل تجاوزوا حد الله في يوم السبت المخصص للعبادة كوفهم كانوا مأمورين بأن لا يشتغلوا فيه بغير العبادة، فراحوا يصطادون فيه

يوم أن كانت تأتيهم الأسماك ظاهرة على وجه الماء، وكانت تغيب في غيره، وعن الحسن: تشرع على أبوابهم كأنها الكباش البيض، وهو بلاء شديد¹ وقوله تعالى: «وَأَثَلُ عَلَيْهِمْ نَبَأُ ابْنِي آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ، لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَنَّكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ» [المائدة: 29-31] **فقط** تضمن قوله تعالى عقابا متوقعا بكل من يرتكب جريمة القتل.

3 - مستوى الأخلاق:

جاءت الأديان السماوية وكلها عزم في الرفع من النوع الإنساني، وأحاطته العناية والتكريم، وحذرته من الانحدار بنوعه إلى نوع دون نوعه من المخلوقات الأخرى التي لا تعي ولا تفقه ولا تفكر؛ وقد تقاربت الأديان كلها في مطالبة الإنسان بالتحلي بالأخلاق الفاضلة كالتواضع، والحشمة، والوقار والحياء، والسماحة والحلم...؛ هذا وقد أخبرنا القرآن في أيما موضع عن أخلاق الأمم السابقة، وفي إخبار هذا تميم وإكمال لما جاءت به الكتب السماوية، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى وهو يخبرنا من خلال أسلوب حوار شيق عن شخصية قارون وما اعتراه من غرور بالمال والجاه يقول تعالى: «إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءَ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ، وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ» [القصص: 76].

فالمحاور التي يحدد من خلالها الإطار العام لمقاربة الأديان حافلة بمواضع العبرة والموعظة، ومن أبرز هذه المواضع:

¹ — الكشف ص/2-144.

- أن النفس الكريمة الخيرة لا تفسدها النعمة ولا تضعف أمام المغريات والمثيرات.

- الغرور أسرع السبل إلى فقدان النعمة.

- لا ينبغي الاغترار بالمظاهر والأعراض الزائلة¹.

ومن الأمثلة في هذا المستوى قوله تعالى: «وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ» [البقرة: 83]. وقوله تعالى: «قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ» [يوسف: 92]. وقوله تعالى: «قَالَ مَا مَكَنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا» [الكهف: 95].

القرآن ليدعمها من جديد وقد بين الحسن منها وحث على التحلي بها، وبين الرديء منها ونهى عن التحلي بها.

وإزالة للبس نرى في الأخير أن مصطلح مقارنة الأديان أنسب في التعامل مع أي القرآن التي تحدثت عن ديانات الكتب السماوية باعتبار أن المقارنة تفرض علينا حتما الوقوف على أوجه التشابه والاختلاف بين الديانات السابقة وديانة الإسلام، وهذا ما يرفضه منهج الدراسة بحجة أن الإسلام جاء امتدادا للديانات السابقة، ورث منها أشياء، وأضاف أشياء أخرى تحتاج إليها البشرية إلى يوم الدين، وبالتالي فمصطلح المقارنة بمفهوم الوقوف على أوجه التشابه وأوجه الاختلاف قد يفسد هذه الامتدادية، ويثير حساسية التفاضل المفرطة غير المؤسسة، ويقضي على مبدأ التكامل الذي أقره القرآن الكريم بقوله تعالى: «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا» [المائدة: 04].

¹ — د/عبد الحليم حفي. أسلوب المحاوراة في القرآن الكريم. ص/209.

وعليه فالمقاربة السابقة توضح أن الانحراف بالأديان السابقة كان سببا في خلق الصراعات بين معتنقيها «ولو سارت الأديان سيرها الطبيعي كرسالات من عند الله دون تحريف لالتقت جميعا في أهدافها وفي كثير من وسائلها ولكان اللاحق منها مكملًا للسابق»¹.

والهدف الرئيسي من وراء هذه المقارنة هو توضيح طبيعة الإسلام — الشاملة والسلمية — وتصحيح رؤى المسلمين وغير المسلمين من أن الدين واحد، وهو الآن منصهر في بوتقة واحدة هي آخر عنقود في الديانات، يقول تعالى: «أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ» [الزمر: 03].

¹ — د/أحمد شليبي. مقارنة الأديان. المسيحية. ص/248.